أعظم الناس (*)

إني مخبرُك عن صاحب لي كان أعظمَ الناس في عيني، وكان رأسَ ما عظمه عندي صغرُ الدنيا في عينه.

كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثِر إذا وجد.

وكان خارجاً من سلطان فَرْجه، فلا يدعو إليه ريبةً، ولا يستخفُّ له رأياً ولا بَدَنا، وكان لا يَأْشَرُ[1] عند نِعمة، ولا يستكينُ عند مصيبة.

وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يتكلَّم بما لا يعلم ولا يُماري[2] فيما علم.

وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يُقدم إلا على ثقة بمنفعة.

وكان أكثرَ دهره صامتاً، فإذا نطق بَذَّ[3] القائلين. وكان يُرىٰ ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جدَّ الجد فهو الليثُ عادياً.

وكان لا يدخلُ في دعوى، ولا يشارك في مِراء، ولا يُدْلي بحجَّة، حتى يَرى قاضياً فَهِماً وشهوداً عدولاً.

وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذرُ في مثلِه، حتى يعلمَ ما اعتذاره.

وكان لا يشكو وَجَعاً إلا إلى من يرجو عنده البُرْء، ولا يستشير صاحباً إلاّ من يرجو عندَه النصيحة.

وكان لا يتبرَّم، ولا يتسخَّط، ولا يتشكَّىٰ، ولا يتشهّىٰ. وكان لا ينقِم على الوليّ ولا يغفُل عن العدو، ولا يخصُّ نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقُوَّته. فعليكَ بهذه الأخلاق إنْ أطقتَها، ولن تُطيق، ولكنّ أخذَ القليل خيرٌ من تَرْكِ الجميع.

(*) من كتاب الأدب الكبير لابن المقفع ص ١٣٠ (طبعة دار مكتبة الحياة - بيروت)

(١) يأشر: يبطر.

(٢) يماري: يجادل.

(٣) بذّ: غلب.